مواجهة حسان للكاهنة داهية في المغرب العربي و ما ترتب عليها 73هـ–82هـ

إعداد الدكتور:أبو بكر محمود أحمد إسماعيل*

مستخلص البحث:

تناولت الدراسة المواجهات التي تمت بين الكاهنة داهية والمسلمين في المغرب العربي في الفترة من 73 هـ– 82هـ، وتأتى أهمية الدراسة بغرض استجلاء معالم حقبة مهمة من تاريخ المعارك العسكرية التي خاضها المسلمون في المغرب العربي، وبرزت أهدافها في التعرف على شخصية الكاهنة داهية ومدى تأثيرها على بعض البربر وأهل إفريقية ومواجهتها للمسلمين وأسباب استفحال أمرها في المغرب العربي، واتَّبعت الدراسة منهج البحث التاريخي التحليلي والمنهج الوصفي، ومن النتائج التي توصلت إليها الدراسة أن الفتن الداخلية التي أصابت الدولة الأموية كانت سببًا في استفحال أمر الكاهنة، وأنها استطاعت بسحرها وكهانتها أن تحشد حولها بعض البربر وأهل إفريقية في مواجهة المسلمين، وأدت المواجهات إلى هزيمتها في نهاية الأمر، وترتب على ذلك استعادة حسَّان لقرطاجة من أيدي الروم وتقدمه نحو إفريقية، وأوصت الدراسة بإعداد مزيد من الأوراق العلمية حول شخصية الكاهنة داهية وحول البيئة الاجتماعية التي عاشت فيها، والتي أثَّرت في شخصيتها.

* أستاذ مساعد– كلية التربية– جامعة سنار

Abstract:

The study examined the confrontations that took place between the Priestess shrewd and Muslims in the Maghreb in the period from 73e 82e, and the importance of study in order to elucidate the important era landmarks of the history of military battles fought by Muslims in the Maghreb and popped its goals to recognize the personal Priestess shrewd and its impact on some of the Berbers and the people of Africa and the face of the Muslims and the reasons for exacerbation of her in the Maghreb, the study followed the methodology of historical research and analytical and descriptive approach, and the findings of the study that the internal strife that hit the Umayyad dynasty, was the cause of the exacerbation Priestess order, and it was able to charm and Khantha to mobilize around some Berbers and the people of Africa in the face of Muslims and resulted in confrontations to defeat in the end, and the consequent restoration of Hassan to Carthage from the hands of the Romans and the progress towards Africa, the study recommended preparing a more scientific papers around the figure of the priestess shrewd and about the social environment in which they lived, and that affected her personality.

المقدمة:

تناولت الدراسة المواجهات التي تمت بين الكاهنة داهية والمسلمين في المغرب العربي وما ترتب عليها في الفترة الممتدة من 73هـ–82هـ.

أهمية الدراسة:

تأتى بغرض استجلاء معالم حقبة مهمة من تاريخ المعارك العسكرية التي خاضها المسلمون في المغرب العربي، وعرض المراحل والتطورات العسكرية للجيوش الإسلامية في مواجهة عقبة الكاهنة داهية بنت ماتية التي استفحل أمرها بما حشدته من قوات ضد المسلمين مستفيدةً من كهانتها التي أضحت معتقدًا لدى بعض البربر وأهل إفريقية في تلك الفترة.

أهداف الدراسة:

هدفت الدراسة إلى التعرف على شخصية الكاهنة داهية بما استصحبته معها من سحر وكهانة، وأسباب استفحال أمرها في المغرب العربي، والتعرف على مدى تأثير شخصيتها على البربر وبعض أهل إفريقية، والتعرف على المواجهات التي وقعت بينها والمسلمين، والمنهجية العسكرية التي اتَّبعتها الجيوش الإسلامية في مواجهتها.

أسباب اختيار الموضوع:

تولَّدت الرغبة في دراسة هذا الموضوع واستقصاء حقائقه والتوثيق له من باب إحياء التاريخ الإسلامي تسجيلًا وتقويمًا.

أسئلة الدراسة:

1. كيف أثَّرت شخصية الكاهنة داهية بنت ماتية على بعض البربر وأهل إفريقية؟
2. لماذا استفحل أمر الكاهنة في بلاد المغرب العربي؟
3. كيف تخلص حسَّان بن النعمان من عقبة الكاهنة داهية؟

4. ما هي الآثار التي ترتبت على هزيمة الكاهنة داهية؟**مشكلة الدراسة:**

تمثلت في العلاقة الممتدة بين الكاهنة داهية بنت ماتية من جهة وقبائل البربر وأهل إفريقية من جهة أخرى، وأيضًا العلاقة بين الكاهنة داهية والقائد الإسلامي حسَّان بن النعمان في أطوارها العسكرية المختلفة.

منهج الدراسة:

منهج البحث التاريخي الوصفي.

مدخل:

دخل المغرب ميدان التاريخ والحضارة تحت راية الإسلام بفضل العرب، الذين تحمَّلوا تبِعات الفتوحات الإسلامية وأخطارها، وتجلَّى المغرب عن شعب من أكرم شعوب العروبة والإسلام، وأقواها وأثبتها على الإيمان، وأشدها حفاظًا على التقاليد والموروثات، ولم يقتصر امتداد العرب على بلاد الساحل المغربي رغم ترامیه، بل تخطوه إلى الأندلس من وراء البحر، ثم إلى بلاد غالة الفرنجية من وراء جبال البرت، واقتحموا بحر الرمال جنوب المغرب، ودخلوا أقطار إفريقية المدارية، وأدخلوا في رحاب الإسلام وحضارته أممًا امتدت من برقة إلى المحيط الأطلسي كانت إلى ذلك الحين تعيش في ضباب ما قبل التاريخ، وقد سكن بلاد المغرب منذ أقدم العصور عنصر واحد من السكان لذلك كانت حضارته منعزلة فرضتها طبيعة البلاد.[1]

سكن المغرب أجناس مختلفة أهمها البربر وهم سواد السكان، وبعض الروايات ترى أن اسم البربر اسم أطلقه الرومان على سكان المغرب، لأنهم كانوا يعتبرونهم أعاجم على حضارتهم فسموهم برابرة، وتجرى في عروقهم الدماء الزنجية ويتكلمون لغة خاصة، وقد هاجر البعض منهم إلى جنوب مصر بعد العصر الفرعوني، وظهر البربر منذ آلاف السنين ويتميزون بزرقة العينين وشقرة لون الشعر وبياض الوجه و الرأس المستدير والخدَين البارزين، وينقسمون إلى قسمين رئيسين: البربر البُتر والبربر البرانس.[2]

بعد أن استكمل عمرو بن العاص فتح مصر في19ه، اتجهت أنظار المسلمين نحو فتح بلاد المغرب العربي (شمال إفريقية)، وكان عليهم مواجهة الدولة البيزنطية التي حشدت كل قدراتها الإدارية وترسانتها العسكرية للدفاع عن عاصمتها العربية

[1] .Mac Michael: Ahistory of the Arab in the Sudan,1,Cambridge,P. 123.

[2] Henary Terrasse: Historie du Moroc,1, Casablanca, 1949,P. 17.

قرطاجة مستعينةً بالبربر وبعض القوى الأخرى، فظهر قادة الفتوحات الإسلامية منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح، و بسر بن أبى أرطاة، و عبد الله بن الزبير، وأبو المهاجر دينار، عقبة بن نافع الفهري حتى استشهاده في معركة تهودا في63ه على يد كُسيلة بن لمزم البربري،و زهير بن قيس البلوى حتى استشهاده هو الآخر، ثم حسان بن النعمان الغساني في فترة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان(1)، وما كان حسَّان ينجز تحضيراته إلا وسأل أهل إفريقية عن أعظم الملوك بها قدرًا فقالوا له:(صاحب قرطاجة)، وكان يومئذٍ بقرطاجة جموع من الروم لا تُحصى، ولم يكن المسلمون قط قد فتحوها، بل كانوا يحاصرونها ويفرضون على أهلها أموالًا، فلما وصل حسَّان إليها حارب الروم والبربر وقتل منهم أعدادًا كثيرة، فهرب البعض منهم إلى صقلية والأندلس، وفتح حسَّان قرطاجة عنوة وهدم بعض أسوارها لكي لا يحتمي بها المدافعون عنها مرةً أخرى،(2) واضطربت الأحوال في بلاد المغرب، وظهرت الفتن داخل الدولة الأموية، وتوقفت الفتوحات الإسلامية أربع سنوات لانشغال الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بالقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز، وخرج عبد الملك لمحاربة زفر بن الحارث بقرقيساء، واستخلف وراءه عمرًا بن سعيد، الذي استغل غياب،[1]الخليفة عبد الملك ودعا الناس لبيعته بدمشق، فرجع عبد الملك وحاصر دمشق ودخلها وقتل عمرا بن سعيد بن العاص، ثم أجلى الجراجمة عن لبنان والشام، وفي سنة 72هـ خرج عبد الملك بن مروان لمحاربة مصعب بن الزبير، وعهد إلى الحجاج بن يوسف الثقفي بالتوجه إلى مكة فدخلها، ثم

1.شلبي، أحمد (1999): موسوعة التاريخ الإسلامي، ج1، ط15، مكتبة النهضة، مصر، ص.606

2. ابن الآبار، أبو عبد الله أحمد(1963): الحلة السيراء، ج2، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، ص.331

3. المالكي، أبوبكر عبد الله(1951): رياض النفوس، ج1،دار الغرب الإسلامي، ص.34

جهز عبد الملك جيشاً إلى إفريقية عدته ستة آلاف مقاتل تحت قيادة حسَّان بن النعمان الغساني.[1]

أمر الخليفة عبد الملك حسَّان بن النعمان بالإقامة في مصر مع عسكره حتى ينتهي من مشكلة عبد الله بن الزبير، ثم كتب غليه مرةً أخرى يأمره بالسير إلى إفريقية وقال له: " إني قد أطلقت يدك في أموال مصر فأعط من معك، ومن ورد عليك، وأعط الناس و اخرج إلى بلاد إفريقية على بركة الله وعونه"[2]، وخرج حسَّان إلى إفريقية و انضمت إليه أعدادٌ أخرى من المسلمين، ومضى في جيشه حتى وصل طرابلس الغرب فاجتمع إليه من كان بها ومن خرج معه من إفريقية وطرابلس فأرسل جيشاً إلى إفريقية بقيادة محمد بن أبي بكر وهلال بن ثروان ففتح البلاد بعد أن وجد بعض المقاومة في طريقه من طرابلس إلى القيروان من الحاميات الرومية.(3) و سأل حسان بن النعمان أهل القيروان عمن بقي من أعظم ملوك إفريقية ليسير إليه فيبيده أو يسلم بعد أن برأت جراحهُ بالقيروان فدلُّوه، على امرأة بجبل أوراس يُقال لها الكاهنة داهية بنت ماتية بن تيغان الزناتية، و هي امرأة اجتمع إليها البربر، وأنهم مطيعون لها فإن قتلتها دان لك المغرب كله.[4]1

شخصية الكاهنة داهية:

الكاهنة داهية بنت ماتية الزناتية امرأة بربرية من قبيلة جراوة (من قبائل البربر الكبيرة التي تهودت قبل الإسلام)، احترفت السحر والكهانة، وكانت تستوحي

1. المالكي، مصدر سابق، ص.34

2. ابن عذارى، أبو محمد عبد الله المراكشي(1947): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ليفى بروفنسال، ج1، دار الثقافة، بيروت، ص.34

3. الإدريسي، عزوز(1986): الاستبصار في عجائب الأبصار، دار الشؤون العامة، بغداد، ص.111

4. المالكي: المصدر نفسه، ص.180

الشياطين، وتميزت بقوة الإرادة وشدة البطش، وأضفت على نفسها صفة البركة والولاية، وهيمنت على عقول الكثير من الناس عن طريق الدجل والشعوذة وكان الروم يهابونها[1]، واستطاعت بما لديها من شخصية قوية استقطاب قبائل الأوراس البربرية تحت زعامتها فأطلق عليها ابن عبد الحكم و البلاذري اسم (ملكة البربر)، وتقول بعض الروايات إنه كان مع الكاهنة صنمٌ عظيمٌ من خشب وكانت تعبده بمعنى أنها كانت وثنية، وكان لها عددٌ من الأبناء في سن الشباب ورثوا رئاسة قومهم عن سلفهم، فتربَّوا في حِجرها، فاستبدت واعتزت بهم على قومها بما كان لها من الكهانة فانتهت إليها رئاستهم ووقفوا عند إشارتها[2]، وكان لها شَعَرٌ مُميز تطلقهُ ساعة استحضارها لشياطينها وتدق صدرها بيدها، فتمتلك الناس من حولها رهبة شديدة، وكانت ذات كياسة وتدبُر، ولم تكن صغيرة السن، بل كانت كهلة وكان أحد أبنائها روميًّا، مما يدل على أنها تزوجت من رومي.[3]

المواجهة الأولى بين حسَّان والكاهنة:

عزم حسَّان بن النعمان على مواجهة الكاهنة داهية فخرج إليها بجيوشه، ولما بلغ موضعًا يُقال له (مجانة) نزل بها، وكانت مجانة قلعة لم تُفتح فمضى حسَّان[1] وتركها، وعلمت الكاهنة بأمره فزحفت من جبال أوراس في عدد لا يُحصى ونزلت في مدينة (باغاية) فأخرجت من كان بها وهدمتها، وكانت تظُن أن حسَّانًا يريد أن يتحصن بها، وأقبل حسَّان حين بلغه الخبر إلى (وادي مسكيانة) أو وادي مكناسة كما ورد في بعض المصادر، فقيل له إنها أقبلت في عدد لا يُحصى فقال " دُلوني على

1. الزاوي، الطاهر محمد(1963): تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المعارف، ط2، ص.7

2. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(1399ه):العبر،ج6، مؤسسة جمال للطباعة، بيروت، ص.107

3. السلاوي، أبو العباس شهاب الدين أحمد(1954):الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج1، دار الكتاب، الدار البيضاء، ص.82

ماء يسع العسكر الذي أنا فيه " فدلُّوه على نهر نزل عليه، [1] وزحفت الكاهنة حتى أتت أسفل النهر فنزلت عليه هي الأخرى، ودنا الطرفان من بعضهما فكان حسَّان يشرب هو وأصحابه من أعلى النهر وتشرب هي وأصحابها من أسفله، وبات الفريقان على مصافهم، فلما أصبحوا زحف بعضهم على بعض، فاقتتلوا قتالًا شديدًا وعظُم البلاء على المسلمين، وظنوا أنه الفناء، وكان ذلك سنة 75ه، فانهزم حسان بعد بلاءٍ عظيم، وقُتِل من المسلمين خلقٌ كثيرٌ فسُمِيت المعركة باسم معركة (وادي مسكيانة)، وسُمي ذلك اليوم باسم (يوم البلاء)، وسُمِي النهر الذي اقتتلوا فيه باسم (نهر البلاء).[2]

خرج حسَّان على حدود (قابس)، وأسرت الكاهنة من أصحابه حوالي ثمانين رجلًا منهم خالد بن يزيد العبسي فحبسته عندها وقالت له: "ما رأيت في الرجال أجمل وأشجع منك وأنا أُريدك أن تكون أخًا لأولادي"، فعمدتْ إلى دقيق الشعير وخلطتهُ بالزيت وجعلته على ثديها ودعت ولديها (بفران ويزديان) وقالت لهما: "كُلا معه على ثدييَّ " ففعلا فقالت:" قد صرتم إخوة"، و أحسنت إلى باقي الأسرى العرب، ثم أطلقت سراحهم.[3]1

اكتفت الكاهنة بهزيمة المسلمين، فأخرجت حسَّانًا من حدود إفريقية، ولم تتعرض للقيروان بالسوء، وعادت إلى جبال أوراس، وعملت على القضاء على مظاهر العمران بإفريقية اعتقادًا منها أن العرب يسعَون وراء العمران والحصول على

1. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن الشيبانى(1965): الكامل في التاريخ، ج1، دار بيروت للطباعة والنشر، ص.143

2. المالكى: مصدر سابق، ص.33

3. الصلابي، على محمد(2008): الفتح الإسلامى، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، ص207.

الذهب والفضة فقط بإفريقية، فوجَّهت قومها في بلاد إفريقية والمغرب بنسف المزارع و هدم الحصون.[1]

من أسباب فشل المسلمين في هذه المعركة كما ذكر المؤرخ المعروف محمود شيت خطاب في كتابه(قادة فتح المغرب العربي) أنهم قاتلوا بدوًا مثلهم يجيدون النزال في الميدان طال عهدهم بنزال البيزنطيين، وأن المسلمين أعجبتهم كثرتهم فاستهانوا بعدوِّهم، فلم يبذلوا قصارى جهدهم في القتال، فقلَّلوا من شأن قيادة البربر المتمثلة في الكاهنة و هي امرأة، فظنوا أن الانتصار على البربر سهل، فوقعوا في نفس الخطأ الذي وقع فيه جيش النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة حُنين إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئًا، وترى الدراسة أن التحليل الأخير يحتاج إلى مزيد من التمحيص والتدقيق، وأحسنت الكاهنة إلى الأسرى من المسلمين، ويبدو أنها أدخلت في حساباتها احتمال انتقام البربر المسلمين إذا هي أساءت معاملتهم، وكان الإحسان إلى الأسرى من تقاليد البربر العريقة، إذ أنهم دأبوا على الإحسان إلى الأسرى في معاركهم السابقة، وقد يكون لتقرُّب خالد بن يزيد منها أثرًا كبيرًا على إحسانها للأسرى من أجل إنقاذ إخوانه فكان له ما أراد.[2]1

لم تكن الكاهنة ترجو شيئًا أكثر من خلاص قبيلتها ومُلك أبنائها في الأوراس، فلم تتعرض للقيروان بالسوء كما ذكرنا من قبل، فاكتفت بإبعاد قوة المسلمين عنها، وما دام المسلمون الذين في القيروان ضعفاء مسالمين، فلا خطر على الكاهنة منهم، كما أن الكاهنة لو هددت القيروان بالدمار، فان ذلك قد يثير البربر المسلمين عليها، مما يؤدي إلى خلق متاعب ومشاكل لها دون مبرر، ومن المعلوم أيضًا أن جيش

1. ابن عذارى: مصدر سابق، ص.36

2. خطَّاب، محمود شيت(2002): قادة فتح المغرب العربي، ج1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص.185

الكاهنة معظمهم من البدو يحتاجون إلى المعونات والغـذاء، وأن المسـلمين كـانوا أقرب إلى نفوس البربر من الروم لالتزامهم بمبادئ الحق والعدل.[1]

استمر رجال الكاهنة يطاردون حسَّانًا ورجاله إلى طرابلس وشـرقها، ونصـب حسَّان خيامه في مكان أصبح يسمى (قصور حسَّان)، وكتب إلى الخليفة عبد الملـك بن مروان طالبًا المدد، فاستجاب الخليفة، وتوافد الرجال على حسَّان، فدعا حسَّـان برجل يثق به، وبعثه إلى خالد بن يزيد العبسي بكتاب يستعلم به من خالد الأمـور، فكتب خالد في ظهر كتاب حسَّان وقال له: " إن البربر متفرقون لا نظـام لهـم ولا رأي عندهم فأطوِ المراحل وجِد في السير "[2]، وبعد سـقوط قرطاجـة فـي أيـدي المسلمين انتظر البيزنطيون الفرصة لاستردادها، فانتهز الإمبراطـور ليونيتـوس، الذي خلف جستنيان الثاني فرصة انتصار الكاهنة داهية على العرب المسلمين، وأعدَّ حملة بحرية بذل فيها جهدًا عظيمًا بقيادة البطريرك يوحنا أغارت علـى قرطاجـة في78هـ، وقتل البيزنطيون بعض من بها من المسلمين، و أساؤوا معاملة من وقـع في أيديهم من الأسر.[3]1

علم حسَّان بما فعله الروم بالمسلمين، فأرسل أربعين رجلًا من أشراف العرب إلى عبد الملك بن مروان، وذكر له بما نال المسلمين من البلاء، ويبدو أن حركة الـروم كانت انتقامية فقط، و لم يتجهوا شرقًا نحو برقة لمحاربة حسَّان، و اكتفوا باسـتعادة قرطاجة والمدن المجاورة لها، وربما يعود ذلك إلى ضعف قدراتهم العسـكرية فـي تلك الفترة الزمنية الدقيقة، وبذل حسَّان قصارى جهوده لاسـتطلاع أمـر الكاهنـة،

1. مؤنس،حسين(1947): فتح العرب للمغرب، مطبعة مصر، القاهرة، ص.249

2. ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (بدون تاريخ): فتوح مصر والمغرب، مطابع لجنة البيان العربي، ص.207

3. سالم، السيد عبد العزيز(1982): تاريخ المغرب في العصر الإسلامى، ج2، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة س، ص159.

فاستطاع أن يحصل على معلومات قيِّمة عن تفرق البربر، واتخذ خالد تدابير السرية والكتمان، فهو يخفي رسائله إلى حسان تارةً في الخبز الذي عمل على إنضاجه بالنار حتى لا يشك في أمره أحد، وتارةً يخفيها في قربوس السرج ويطبق عليها حتى يخفي مكانها، وبذلك استطاع خالد أن يُوصِل إلى حسان ما احتاجه من معلومات عن الكاهنة.[1]

ملكت الكاهنة المغرب كله خمس سنوات، و قالت البربر:" إن العرب إنما يطلبون من إفريقيّة المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي، فلا نرى لكم إلَّا خراب بلاد إفريقيّة كلها حتى ييأس العرب منها، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر، فوجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون، وسُمِي ذلك (التخريب الأول لإفريقية) وهو ما يسمى اليوم (حرب الأرض المحترقة)، والتي تهدف إلى ترك الأرض خرابًا يبابًا أمام الخصم حتى لا ينتفع بخيراتها، وبالتالي يزهد في الإقامة بها، وخرج يومئذٍ من النصارى والأفارقة خلقٌ كثيرٌ مستغيثين بالمسلمين بما نزل بهم من الكاهنة من قسوة وعنف وبطش، فتفرقوا على الأندلس، وسائر الجزائر البحرية.[2]1

أما عن سياسة تخريب إفريقية التي اتَّبعتها الكاهنة فقد أضرَّت بها كثيرًا في نهاية الأمر، لأنه إذا كان قد وُجد من أهل البلاد من يؤيدها في مناهضة العرب وطردهم من البلاد، فليس فيهم من يقف مكتوف الأيدي إزاء هذا التخريب الذي اختارته الكاهنة للبلاد على يديها، فأخذوا يُعارضونها، فاضطرب الأمر بيدها،

1. خطاب: مرجع سابق، ص.192

2. ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص270.

وتضعضع سلطانها[1]، وواصلت الكاهنة ظلمها للناس بعد أن ملكت إفريقية، وساءت أحوال البلاد، وتذمر البربر من جرَّاء استمرار المعاملة القاسية التي تعرضوا لها من قِبل الكاهنة، فلما حاولت الكاهنة أن تؤلف منهم جبهة لمواجهة العرب المسلمين ثاروا عليها وعارضوها.[2]

المواجهة الثانية بين حسَّان والكاهنة:

كان الخليفة عبد الملك بن مروان مشغولًا بمواجهة الفتن والاضطرابات الداخلية لأكثر من أربع سنوات، لذلك تأخر في إرسال المدد لحسَّان لمواجهة الكاهنة داهية، وكانت الفتن قد استفحل أمرها واستمرت حتى خرج مطرف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج بن يوسف الثقفي، وفي سنة 79هـ أصاب الطاعون أهل الشام، وكان ذلك سببًا أيضًا في توقف الفتوحات الإسلامية في سنة 80ه، وتواصلت الفتوحات الإسلامية بعد ذلك، وسيَّر الخليفة عبد الملك بن مروان إلى حسَّان بن النعمان الجنود والأموال، وتوافد عليه فرسان المسلمين ورجالهم حتى اكتملت جاهزيته للقتال ماديًّا ومعنويًّا، وأمره عبد الملك بالسير إلى إفريقية وقتال الكاهنة، فرحل حسَّان إليها في أواخر 81هـ، وبلغ الكاهنة خبره فرحلت من جبال أوراس في خلقٍ عظيم،[3]1ولما اقترب حسَّان من الكاهنة خرجت ناشرة شَعرها فقالت: " يا بنيَّ، انظروا ماذا ترَون في السماء؟ قالوا لها: نرى شيئًا من سحابٍ أحمر. فقالت لهم: لا والله ولكنها وهج خيول العرب. ثم قالت لخالد بن يزيد: "إني إنما تبنيتُك لمثل هذا اليوم أنا مقتولة و

1. ابن الأثير: مصدر سابق، ص.180

2. مؤنس،حسين(1990): تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، ج1، الدار السعودية للنشر والتوزيع ط1، ص.252

3. الصلابي: مرجع سابق، ص210.

أُوصيك بأخوَيك خيرًا، فانطلِق وخذ لهما أمانًا" [1]، وأعلمتهم أنها رأت رأسًا مقطوعًا بين يدي ملك العرب الأعظم الذي بعثه حسَّان، فقال لها خالد:" فارحلي بنا وخلِّي له البلاد "، فامتنعت ورأته عارًا لقومها، فانطلق خالد فلقي حسانًا وأخبره بخبرها، وأخذ لابنيها الأمان، ثم التحم الفريقان واشتد القتال والنزال.[2]

و اعتصمت الكاهنة بحصن الأجم عند وقوع المعركة وحفرت منه سربًا، فكان الطعام يأتيها في ذلك السرب، [3]، وتشير بعض الروايات إلى أن الكاهنة هربت عند وقوع المعركة الثانية إلى قلعة بشر لتتحصن بها، ثم هربت منها إلى جبال أوراس ومعها صنم عظيم من الخشب كانت تعبده، وكانت تحمله على جمل فتبِعها حسَّان حتى اقترب من موضعها ثم التقى بجيشها سنة 82ه عند منطقة يُقال لها (بئر الكاهنة)، فسُمِيت المعركة بهذا الاسم، وتورد بعض الروايات أنه كان مع حسَّان جماعة من قبيلة البُتر البربرية استأمنوا إليه، فلم يقبل أمانهم إلَّا أن يعطوه اثني عشر ألفًا من قبائلهم يجاهدون مع العرب، فأجابوه فعقد لولدي الكاهنة لكل واحدٍ منهما على ستة آلاف فارس، فواجه الكاهنة وهزمها هزيمة شنعاء وقتلها.[4]1

الآثار التي ترتبت على هزيمة الكاهنة داهية:

- أسلم بعض البربر واطمأنت نفوسهم إلى الإسلام، وعاد حسَّان إلى القيروان في شهر رمضان سنة 82ه، وأكمل نواقص قوته الإدارية والعسكرية، واتجه إلى شمال القيروان إذ لا زالت هنالك بقاع يحكمها الروم، وقلاع يسيطر

1. المالكي: مصدر سابق، ص.34
2. الصلابي: مرجع سابق، ص.211
3. سعد زغلول عبد الحميد(1999): تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ج2، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، ص.226
4. الجمل، شوقي عطا الله(1977):المغرب العربي الكبير في العصر الحديث،ط1، مكتبة الأنجلو المصرية،ص.110

عليها بعض البربر، وكانت جنوب قرطاجة لا تزال موطنًا لمقاومة الـروم والبربر، فأرسل حسَّان مولاه أبا صالح فنازلها ثلاثـة أيـام دون جـدوى فأسرع إليها حسَّان بنفسه ففتحها صُلحًا.[1]

- استعاد حسَّان فتح قرطاجة، وكان يوحنا ورجاله من الروم قـد حصَّـنوها وتحصَّنوا بها، وأعادوا ما تهدم من أسوارها، فسار إليهم حسَّان وحاصـرهم عند أسوار قرطاجة،وانهزم يوحنا هزيمة شنعاء ولجأ إلى داخـل قرطاجـة محتميًا بها، وسقطت قرطاجة في أيدي جيش حسَّـان، وجمـع البطريـرك يوحنا أجناده وتولى بيزنطة.[2]
- بعد فتح قرطاجة أرسل حسَّان بن النعمان أسطوله إلـى الجـزر المتصـلة بساحل إفريقية ففتحها، ثم أرسل أسطول تحت قيادة عبد الملـك بـن قطـن لتطهير الجزر المحيطة التي كانت مكمنًا للأعداء، كما بعث إلى فاس جيشًـا فافتتحها فخلصت بلاد إفريقية لحسَّان بن النعمان سنة 82هـ.[3][1]
- أنشأ حسَّان قاعدة متقدمة للدفاع عن إفريقيـة لمواجهـة تهديـدات الـروم والبربر المتكررة، و للهجوم على الروم في جزر البحر الأبيض المتوسـط، فوجد الموقع المناسب في مدينة في شكل ميناء قديم في المغرب كان يُسـمى (ترشيش) (تونس حاليًّا)، وبدأ في تخطيط المدينة حتى اكتملت، وأنشأ حسَّان في تونس دار للصناعة حتى تستطيع السفن أن ترسو فيها وتقلع في أمـان، فأصبحت تونس بذلك رباطًا يحمي القيروان وميناء له أهميته، وأقـام فيهـا

1. الصلابي: مرجع سابق، ص.212
2. البكري، أبو اسحق إبراهيم(1381ه): المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر، مطابع دار القلم، القاهرة، ص.370
3. خطاب: مرجع سابق، ص.200

حسَّان مسجدًا جامعًا سُمِي (جامع الزيتونة)، وأمر بتجديد المسجد الجامع في القيروان، وأقام في تونس دارًا للإمارة.[1]

- نظم حسَّان أمر جباية الأموال ففرض الخراج على الروم بإفريقية وعلى نصارى البربر واحتفظ بدار ضرب النقود التي كانت في قرطاجة، ويعود الفضل إلى حسَّان في أنه أول من أدخل البربر بشكل منظم في الجيش العربي الإسلامي، وعمل على تعليمهم القرآن وأُصول الدين الإسلامي، وحوَّل المغرب إلى ولاية عربية إسلامية، وأدخل فيها النظم والإصلاحات الإدارية والعمرانية.[2][1]

1. دبوز، محمد علي (1963): تاريخ المغرب الكبير، ج2، ط1، دار إحياء الكتب العربية، ص.115
2. الزاوي: مرجع سابق، ص108.

الخاتمة

استغلت الكاهنة داهية فترة توقف الفتوحات الإسلامية بسبب الاضطرابات والفتن التي أصابت الدولة الأموية، وفرضت نفسها بين قبائل البربر وأهل إفريقية مستخدمةً سحرها وشعوذتها، وشكلَّت عبئًا ثقيلًا على القائد حسَّان بن النعمان الذي خسر الجولة الأولى أمامها، فاضطر الخليفة عبد الملك بن مروان أن يرسل إليه المدد فخاض حسَّان المعركة الثانية بقوة وإيمان عميقَين، فسقطت الكاهنة مهزومة بعد أن فقدت المدد والسند، وأبرزت تلك الأحداث الوجود الإسلامي المميز في بلاد المغرب، ولا توافق الدراسة على تلك الكتابات التي كانت ترى أن الانتصارات العسكرية التي حققتها الجيوش الإسلامية في بلاد المغرب كان سببها الرئيس ضعف الأطراف الأخرى من بربر و روم و فرنجة وغيرها، ويرى أنها كانت نتاج لجهودٍ مُضنية وتضحياتٍ جسام قدمها قادة الفتوحات الإسلامية، ومن خلال الدراسة يمكن استخلاص الآتي:

- استطاع حسَّان التغلب على بعض المقاومة الرومية التي وجدها في طريقه من طرابلس إلى القيروان بعد خروجه إلى إفريقية.
- علِم حسَّان بأمر الكاهنة داهية من بعض مسلمي البربر، ولم يتحسَّب لقوتها في بادئ الأمر.
- انتصرت الكاهنة على جيش حسَّان في معركة وادي مسكيانة (المعركة الأولى)، وقتلت وأسرت أعدادًا من المسلمين وخرج حسَّان على حدود قابس.
- انتهز البيزنطيون فرصة هزيمة المسلمين من الكاهنة وأعدوا حملة بحرية استولوا بها على قرطاجة وقتلوا من بها من المسلمين.
- امتلكت الكاهنة إفريقية وتذمَّر البربر من جرَّاء المعاملة القاسية التي تعرضوا لها منها، فاستنجد البعض منهم بالعرب المسلمين.

- انتصر حسَّان على الكاهنة في المعركة الثانية في جبال أوراس بعد أن وصله المدد من الخليفة عبد الملك بن مروان.
- استعاد حسَّان قرطاجة من أيدي الروم بعد أن هزم يوحنا ورجاله ثم فتح الجزر المتصلة بساحل إفريقية ومدينة فاس فخلُصت له بلاد إفريقية.
- أنشأ حسَّان قاعدة متقدمة للدفاع عن إفريقية لمواجهة تهديدات الروم والبربر المتكررة فوجد الموقع المناسب في ميناء ترشيش (تونس حاليًّا).

النتائج:

- تمتعت الكاهنة داهية بشخصية قوية واحترفت السحر والكهانة، وحشدت حولها بعض البربر وأهل إفريقية لقتال المسلمين، الأمر الذي أكسبها قوة.
- أدى انشغال الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بالفتن والاضطرابات الداخلية إلى استفحال أمر الكاهنة في بلاد المغرب العربي.
- أدت المواجهات بين المسلمين والكاهنة داهية إلى هزيمة الكاهنة في نهاية الأمر، وأبرزت الوجود الإسلامي المُميز في بلاد المغرب العربي، واستفاد المسلمون في هزيمتهم للكاهنة من نفور بعضٍ من رجالها بسبب العنف والقسوة التي اتِّبعتها معهم.
- استعاد حسَّان قرطاجة من أيدي الروم بعد هزيمة الكاهنة وخلُصت له بلاد إفريقية.

التوصيات:

أوصت الدراسة بإعداد مزيد من الأوراق العلمية حول:

- شخصية الكاهنة داهية بنت ماتية وعلاقتها بالبربر وأهل إفريقية.
- شخصية حسان بن النعمان القيادية وأدواره في بسط سيادة الدولة الإسلامية في المغرب العربي.
- البيئة الاجتماعية التي عاشتها الكاهنة، والتي أثَّرت في شخصيتها، وفي تعاملها مع الآخرين.

المصادر والمراجع:

- الإدريسي، عزوز الحسيني(1986): الاستبصار في عجائب الإبصار، تصحيح سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون العامة، بغداد.
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن الشيباني(1965): الكامل في التاريخ، ج1، دار بيروت للطباعة والنشر.
- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد(1963): الحلَّة السيراء، ج2، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (1399هـ): العبر، ج6، مؤسسة جمال للطباعة، بيروت.
- ابن عذارى، أبو محمد عبد الله المراكشي (1947): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ليفي بروفنسال، ج1، دار الثقافة، بيروت.
- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (بدون تاريخ): فتوح مصر والمغرب، مطابع لجنة البيان العربي.
- البكري، أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارس(1381ه): المسالك والممالك تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، مطابع دار القلم، القاهرة.
- الجمل، شوقي عطا الله (1977): المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية.
- الزاوي، الطاهر أحمد(1963): تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المعارف، ط2.
- السلاوي، أبو العباس شهاب الدين أحمد (1954): الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج1، دار الكتاب، الدار البيضاء.

- الصلابي، على محمد (2008): الفتح الإسلامي، ط1، المكتبة العصرية، بيروت.
- المالكي، أبو بكر بن عبد الله (1951): رياض النفوس، ج1، دار الغرب الإسلامي.
- خطَّاب، محمود شيت (2002): قادة فتح المغرب العربي، ج1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- دبوز، محمد على (1963): تاريخ المغرب الكبير، ج2، ط1، دار احياء الكتب العربية.
- سالم، السيد عبد العزيز (1982): تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ج2، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة.
- سعد زغلول عبد الحميد (1999): تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال، ج1، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- شلبي، أحمد (1999): موسوعة التاريخ الإسلامي، ج1، مكتبة النهضة، مصر، ط15.
- مؤنس، حسين(1990): تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، ج1، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط1.
- -----(1947): فتح العرب للمغرب، مطبعة مصر، القاهرة.
- MAC Michael: Ahistory of the Arab in the Sudan,1, Cambridge, P. 123
- Henary Terrasse: Historie du Moroc,1, Casablanca, 1949, P.17